خاتمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين

أما بعد: هذه هي الخاتمة: وهي تشتمل على موضوعين: الأول منهما: آداب العالم والمعلم والمتعلم والقاضي والمفتي، والثاني في بيان الطريق التي سلكتها في تأليف هذا الكتاب المبارك:

فنقول وبالله التوفيق. وأول ما يلزم العالم والمتعلّم والقاضي والمفتي أن يعلم كل واحد منهم واجبه الديني، ومسؤوليته الشرعية، لأن القيام بالواجب والمسؤولية لا يتحقق إلاّ بمعرفتهما، ومن أهم واجبه ومسؤوليته: واجبه نحو خالقه، وهو القيام بتوحيده والدعوة إليه، والبُعد عن الشرك وأسبابه، وتنقية إيمانه اعتقاداً وقولاً وعملاً بامتثال أوامر ربه، واجتناب نواهيه، والقيام بطاعته سراً وعلانية، وأن يتقيه بقدر استطاعته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات، الآية: ٥٦] وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء، الآية: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَطِيعُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا ٱلرَّسُولَ﴾ وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِۦ﴾ ﴿فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن، الآية: ١٦].

وقال النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن**

شيء فدعوه»، وأن يخلص العمل لله في جميع أقواله وأفعاله. قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [سورة البينة، الآية: ٥]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٦٢ ـ ١٦٣].

وبالقيام بما ذكرناه يكون قد أخذ حظه وافراً من تركة نبيه ﷺ، لأنه قد أخبر أن العلماء ورثة الأنبياء، وخاصة علماء هذه الأمة التي لا نبي بعد نبيها، وأن الله قد خصهم بكرامة من بين الأمم، حيث أنزل إليهم أعظم كتبه، وأرسل إليهم أشرف رسله، وشرع لهم أكمل شرائعه، وشرفهم وأعلى منزلتهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [سورة البقرة، الآية: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ ﴾ [سورة آل عمران، الآية: ١١٠].

ثم ليعلم أن ما ذكرناه من توحيد الله في عبادته، والبعد عن الشرك به في جميع أنواعه، والدعوة إلى ذلك، وطاعة الله وتقواه لا يتم ذلك إلاَّ بتطبيق شرع الله في كتابه، واستحكام سنة نبيه ﷺ المبينة للقرآن، ورفض ما خالفهما كائناً ما كان، لأنه لا طريقة إلى عبادة الله إلاَّ باتباع نبيه الذي أرسله ليبيّن للناس ما نزل إليهم، قال الله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٦٥] وقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾ [سورة النساء، الآية: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾ [سورة النساء، الآية: ١١٥]. وقال النبي ﷺ: **«والله لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»**.

ثم لتعلم أن الواجب على كل مسلم ومسلمة وخاصة العالِم منهم والمتعلِّم أن لا يحقِّر شيئاً من اتباع هدي نبيه ﷺ والتخلّق بأخلاقه والتأدّب بآدابه، كما أرشدهم الله إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ﴾ [سورة الأحزاب، الآية: ٢١].

قال ﷺ: «**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**» يعني في أمته، لأن الله قد تولى تكميل أخلاقه بنفسه، وبقوله تعالى في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [سورة القلم، الآية: ٤]، وبقوله عن نفسه ﷺ: «**فقد أدّبني الله فأحسن تأديبي**»، وقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ فأجابت: كان خلقه القرآن، قلت: وما ذكرناه عام في جميع المتعلمين، من المسلمين وغير المتعلمين، وأما ما يخص القاضي والمفتي: فمن ذلك أن يكون من أهل التقوى، والمراقبة لله فيما يقوله وما يحكم به، لأنه بتقوى الله يستنير قلبه، ويفتّح عليه من العلوم ما لا يعلمه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [سورة التغابن، الآية: ١١] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [سورة الطلاق، الآية: ٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَـٰنِهِمْ﴾ [سورة يونس، الآية: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [سورة البقرة، الآية: ٢٨٢].

وأن يكون خائفاً أشد الخوف من الزلل في قوله وحكمه، بعيداً عن هوى نفسه وهوى غيره، قال الله تعالى: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [سورة ص، الآية: ٢٦].

وأن يقوم بالعدل والعدالة بين الناس، لا يفرق بين القريب والبعيد، والرئيس والمرؤوس عليه، والغني والفقير، والقوي والضعيف، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والرقيق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ [سورة النساء، الآية: ٥٨]. وقال تعالى: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟﴾ [سورة

المائدة، الآية: ٨]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأنعام، الآية: ١٥٢] وقال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [سورة المائدة، الآية: ٤٨].

وأن يكون زاهداً عما في أيدي الناس من زهرة الدنيا وحطامها، بعيداً عن قبول الرشوة وأسبابها، وأن يكون رزقه من الحلال الذي لا شبهة فيه، لأن من وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام، ولأن العدالة فيمن تطمع فيه من شبه المستحيل، وأن يكون صدوقاً أميناً مرضياً متواضعاً محبوباً عند الخاصة والعامة، لأن بذلك يقبلونه حكماً ويرضون حكمه، وأن يكون عنده علم بمايتسلح به من نصوص الكتاب والسنة والإجماع، وعالماً بقياس ما لم يرد به نص على ما تواترت به النصوص، كما قال النبي ﷺ لمعاذ حين أرسله إلى اليمن: **«بم تحكم فيهم؟»** قال: بكتاب الله. قال: **«فإن لم تجد في كتاب الله؟»** قال: بسنة رسول الله، قال: **«فإن لم تجد في سنة رسول الله؟»** قال: اجتهد رأيي وأقيس الأمور على نظائرها. قال النبي ﷺ: **«الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله على ما يحب الله ورسوله»**، أو كما قال ﷺ.

وأن تكون له مهابته المكتسبة من تواضعه وطاعته، لأن من تواضع لله رفعه، لا من تجبره وتعاظمه على خلق الله تبارك وتعالى، وقد تقدم ذكر الخلاف بين العلماء في اشتراط الاجتهاد في القاضي، ومما اشترطه العلماء في القاضي: أن يكون بالغاً عاقلاً ذكراً حراً مسلماً سميعاً بصيراً متكلماً.

واختلفوا في اشتراط كونه كاتباً، والراجح أنه لا يشترط لأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، وهو القاضي الحقيقي الذي يتفرع من قضائه جميع القضاة، ومن العلماء من كره له مزاحمة العوام في البيع والشراء بنفسه، وممن كره ذلك مالك والشافعي وأحمد، وقالوا: إن دعت الضرورة إلى ذلك يوكل من يقوم بذلك غيره، وأجازه له أبو حنيفة من غير كراهة.

بيان طريقتي في تأليف الكتاب

وأما طريقتي في تأليف هذا الكتاب فهي كما يلي:

أولاً: تهذيب ما يتيسر لي من أقوال الأئمة الأربعة الذين أجمعت الأمة المحمدية التي لا تجتمع على ضلالة على إمامتهم وتقديمهم والاقتداء بهم، وأفرد قول كل واحد منهم إذا حصل خلاف في المسألة بينهم، وأما إذا لم يحصل خلاف فأذكر أنهم اتفقوا على ذلك الموضع، ثم اذكر من قال بقول كل واحد منهم من العلماء، وإن كانوا من الصحابة والتابعين فالغالب أنني أقدم ذكرهم على ذكر الأئمة بترتيب منزلتهم وتقديمها على منزلة الأئمة، وبعد ذلك أذكر سبب الخلاف إن كان في المسألة خلاف، وإن كانت مما أجمعوا عليه أذكر ذلك، وإن كانت مما اتفق عليها الأئمة وخالف فيها غيرهم أذكر اتفاقهم، ثم أذكر من خالف فيها من العلماء وغيرهم.

وأحياناً أقدم مع كل قول دليل صاحبه، وأحياناً أؤخر ذكر الأدلة حتى أنتهي من ذكر الأقوال، ثم أرتب الأدلة على ترتيب الأقوال. وبعد ذلك أناقش الأقوال وأدلتها، وأرجح ما ترجح عندي بالدليل، سواء كان الدليل نصاً أو إجماعاً أو قول صحابي أو اجتهاداً أو قياساً، ثم أذكر وجهة ترجيحي لما رجحته من غير تعصب ولا ميل إلى قول خاص من أقوال أئمتنا رحمهم الله، لأنهم عندي على درجة واحدة في تقديرهم ومحبتهم والاعتراف بفضلهم، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحشر، الآية: ١٠].

وكما أسأله أن يجعل هذا الكتاب لنا ولمن ساعدنا على طبعه ونشره من الأعمال الخالصة لوجهه الكريم المستمر أجرها في حياتنا وبعد مماتنا ما دام موجوداً ينتفع به، وأن ينفع به جميع المسلمين خاصتهم وعامتهم، وأن يجعل له القبول والمحبة والرغبة في مذاكرته في قلوب المشايخ والعلماء وطلبة العلم، كما أشكره على توفيقه وهدايته ومعونته على إكماله على الوجه الذي يرضيه إن شاء الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بيان المراجع

وأما بيان المراجع التي استعنت بها في تأليف هذا الكتاب فهي :

من كتب التفسير .

١ ـ تفسير ابن جرير الطبري .

٢ ـ تفسير القرطبي .

٣ ـ تفسير ابن كثير .

٤ ـ تفسير فتح القدير للشوكاني .

٥ ـ تفسير أضواء البيان لمحمد الأمين الشنقيطي .

٦ ـ أحكام القرآن لابن العربي .

ومن كتب الحديث :

١ ـ صحيح البخاري مع شرح ابن حجر العسقلاني فتح الباري .

٢ ـ صحيح مسلم على شرح الإمام محيي الدين النووي .

٣ ـ موطأ مالك على شرح الزرقاني .

٤ ـ سنن أبي داود .

٥ ـ بلوغ المرام على شرح سبل السلام للصنعاني .

٧ ـ عمدة الأحكام عليه شرح ابن دقيق العيد .

٨ ـ شرح السنة للبغوي.
٩ ـ نيل الأوطار للشوكاني.

ومن كتب الفقه للمالكية:

فأهم المراجع التي سلكت طريقها في هذا الكتاب ورتبت أبواب الكتاب ومسائله على ترتيبه:

١ ـ بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد.
٢ ـ المدونة الكبرى للإمام سحنون.
٣ ـ كتاب الإستذكار لابن عبد البر.
٤ ـ الكافي لأبي عمر بن عبد البر.
٥ ـ الرسالة لأبي زيد القيرواني.
٦ ـ جواهر الإكليل على مختصر خليل.
٧ ـ مصباح السالك على شرح أسهل المسالك.

ومن كتب الشافعية:

١ ـ رحمة الأمة لمحمد بن عبد الرحيم الدمشقي.
٢ ـ المهذب للشيرازي.
٣ ـ المجموعة للإمام النووي.
٤ ـ فقه السنة للسيد سابق.

ومن كتب الحنفية:

١ ـ شرح فتح القدير على متن القدوري.
٢ ـ متن القدوري نفسه.

ومن كتب الحنابلة:

١ ـ المغني لابن قدامة.

٢ ـ زاد المستقنع.

٣ ـ الروض المربع شرح زاد المستقنع.

٤ ـ السلسبيل حاشية زاد المستقنع.

٥ ـ كتاب الأسئلة والأجوبة لعبد العزيزالسلماني.

٦ ـ الإفصاح لابن هبيرة.

٧ ـ العمدة وعليها شرح العدة.

٨ ـ الفتاوى لابن تيمية.

وهذه المراجع التي ذكرناها في الغالب أننا ما نقلنا عنها نصاً، وإنما نقرأ الموضع فيها وننقله بعبارتنا التي أردنا السير عليها، وإذا نقلنا عن واحد منها نصاً ذكرناه والله الموفق للصواب.